نظرية المُحاكاة

ظهرتْ نظريةُ المُحاكاة في القرن الرَّابع قبل الميلاد، عند "أفلاطون" ومن بعدِه "أرسطو" على وجه الخصوص، أما قبلَ ذلك فقد كانت هناك آراء متفرقة مُتَنَاثرة، لكن منذ "أفلاطون" نعثر على أقدمِ نظريةٍ وهي نظرية المحاكاة.

المحاكاة عند أفلاطون 427-347 ق.م

يقسِّم أفلاطون العالَم إلى قسمين: عالَم المثل، وعالَم المادة، أو العالَم الطّبيعي الذي نَحُسُّ به، فعالم المُثل يتضمن الحقائق المُطْلقة والمفاهيم النَّقِية والأفكار الخالِصَة، أما العالم الذي نعيش فيه، فهو مجرد صورةٍ عن العالَم الحقيقي، وهو عالَمٌ ناقصٌ زائفٌ زائلٌ، يقول "أفلاطون" على لسان سقراط وهو يحاور "جْلُوكُون": « **فليس هناك أسرعُ من إدَارَةِ مرْآة في كل اتجاه، فبِالمرآة تستطيعُ على الفوْرِ أنْ تصْنع الشَّمْسَ والسَّمَوَاتِ، وتصنع الأرضَ، وتصنعَ نفسَك، وتصنعَ الحيوان، والنّبات، وكل ما عداها من الأشياءِ التي كُنّا نتحدَّثُ عنها منذ لحظة. قال نعم، ولكنّها لنْ تكون إلّا مظاهر فقط. قلتُ: أحسنتَ فإنّك تصلُ الآنَ إلى النقطة التي أرْمي إليْها**» [1]

إنَّ "أفلاطون" يتوسَّع فى نظرية المحاكاة فيصرفها على كل شيء في الحياة، وهو رأى يأتِي مُخْتَلِفاً عن رأيِ "أرسطو" الذّى سيقصِرُها على الفنونِ أكثر من ذلك فإن "أفلاطون" يرى أن عالَم الصُّورة الخالصة هو عالم الحق والخير والجمال، التي هي مقاييس لا تجرى فى منطقة الحسِّ، وجميع ما في عالم الحس، محاكاة لتلك الصُّور. والنُّظم الإنسانية بدورها محاكاة فكل الحكومات محاكاة للحكومة الصحيحة (المثالية) في عالم الصور أو الأفكار والقوانين نفسها-وهى الأسُس للحكومات-محاكاة لخصائص الحقيقة كما دوَّنها الناس في حدودِ ما اسْتطاعوا[2]. وهنا نكون بصدد الإشارة إلى فكرةِ الكهْف التي اشتهر بها "أفلاطون" في محاوراته، وما الطّبيعةُ كاملةً سوى تقليد للصورة الحقيقية، وما الفنان أو الشاعر أو الرَّسام سوى ناقلٍ لما في الطبيعة التي هي بدورها تعكس عالَم الحقيقة ويعطي مثالا بالأَسِرةِ فيقول: عندنا ...ثلاثة سُرُرٍ، سرير صنَعه الله، وسريرٌ صنعه النّجار وهناك مُصَوّرٌ للسرير، فالأسِرةُ إذن ثلاثة أنواع، وهناك ثلاثة فنانين يتولون صنَاعتها، الله والنجار، والمصور، الله يصنع سريرا بحكم اختياره أو بحكم الضّرورة هذا سرير مثاليٌّ، الله يخلق الفكرة، النّجارُ يحاول أن يحاكيَ تلك الفكرة، وهو في محاكاته لا يصل إلى الأصل، فهو مُقَصِّرٌ دومًا، وإذا تعمَّد مخالفةَ الأصل فذلك أبعدُ عن الحقيقة، أما المصور أو الشّاعر فهو في المرتبة الثالثة، ومن ثمةَ فإن النّجار أقربُ إلى الحقيقة من الشّاعر، ومن هنا

1- شكري عزيز الماضي: في نظرية الأدب، ص 21

2- أحمد صقر: نظرية الدراما الإغريقية بين أفلاطون وأرسطو نظرية المحاكاة عند أفلاطون وعلاقتهما بنظرية المثل 3/1 https://ahmedsaker.ahlamontada.net/t26-topic

تحامُلُهُ على الشّعراء وتفضيل الفلاسفةِ عليهم وطردهم من جمهوريته إلاّ بشروط، إنَّ الشاعرَ لا يسْتَخْدِم عقلَه بل يستخدم العواطف ويستخدم الحواس، وهي لا تُوصِل إلى الحقيقة، فالحقيقةُ تؤخَذُ من الفلاسفة، إن الشُّعراء يُؤَجِجُون العواطفَ بدل تجفِيفِها. والمعرفة التي يقدّمها الشُّعراء ليستْ مِلْكًا لهم بل هي إلْهَامٌ من ربَّات الشِّعر، وبالتَّالي فالشَّاعر لا يملكُ أيَّ شيءٍ هو خالِي الوِفَاض حتَّى إذا مَا أُلْهِم قال شعرَه فليسَ له فضلٌ من عقلٍ، إنّهُ مثلُ النَّافورة، تبْعثُ الماء الذي تم بَثُّه فيها، إنّه مخلوقٌ خفيفٌ مُحلّقٌ، لا يخترعُ شيئًا حتى يُوحَى إليه، فتَتَعَطَّلُ حواسُّه، ويطيرُ عنْهُ عقلُه، فإذا لمْ يصلْ إلى هذه الحالةِ فإنّه لا حول له ولا طَوْل، ولا يستطيع أن ينطِقَ بالشِّعر، وأشخاصٌ على هذه الشَّاكلة لايُمْكِنُهُمْ التوجيهُ ولا القِيَّادَةُ ولا الإرْشَادُ بل مَهَمَّتُهُم في الحقيقة الإفْسَادُ، إنَّهم مجانين ومُعْفُون من المسؤولية، ولا يُنْكِرُ "أفلاطون" أنَّه تَرَبَّى على حبِّ الشِّعْر والتأثُّرِ به، يقول: فليَكُنْ موقِفُنا موْقِفَ العُشَّاق مع مَا يعشقون، حين يعتقدون أن رغباتِهم مُنَافيّةٌ لمصالِحِهم، تراهم يكْبَحُون جِمَاحَ هَوَاهُم، وهذا ما ينبغي أن نَفْعَلَه على غِرَارِ العُشَّاق فَنَتَخَلَّى عنها - ربَّةَ الشِّعر- ولكنْ برَغْمِنَا كارهين، فنحنُ أيضًا قد أُلْهِمْنا حبَّ الشِّعر الذي غرسَه فينا نِظامُ التَّعْلِيم في الدُّولِ النَّبيلةِ، ولذا ينْبغي علينا أن نجْعَلَ ربَّةَ الشِّعْر تتجلى في أجمَلِ حُلّةٍ وفي أصدقِ حالٍ، ولكنْ فَلْتَكُنْ حُجَّتُنا هذه التي أقمْنا عليها الدليلَ بمثابةِ الرُّقْية التي تُبْعِد عنا سِحرَها طالما أنّ ربةَ الشعر عاجِزةٌ عن الدِّفاع عن نفسِها، وهي رُقيةٌ لا نَفْتَأُ نتلُوها على أنفسِنا كلَّما اسْتَمَعْنَا إلى أغانيها حتى لا يَسْتوْلي علينا العِشْق الأحْمَقُ لها، ذلك العِشق الذي يخْلب ألباب الكثيرين، ومهما يكن من أمرٍ، فنحن نُدْرِك أنّ الشِّعر، وهو الحالُ الذي وصفنَا لا يُمكن النظرُ إليه نظرةً جادةً على أنّه طريقُنا إلى الحقيقةِ، ومن يُصْغي إلى كلامِ ربَّةِ الشِّعْر عليه أن يحْتَرِسَ من إغْوائِها مَادَام في قَرَارَةِ نفسِه يخْشى على سلامةِ المدينة، وينبغي عليه أنْ يَتَّخذَ من كلامِنا القانونَ الذي يسير عليه. [3]

"أفلاطون" يَعْتَرِف بفِتْنَةِ الشّعر وإغرائِه وتأثيرِه في النفوس، ويفتتن بِه ولكنَّه يُدِينُه لابتعاده عن الحقيقة، وهذا هو السببُ في إبْعَادِ الشعراءِ من الجمهورية، لكنَّه لم يرفض الشُّعراء رفضًا مُطلقًا، بل أبقى على بعضهم، لقد أبقى على من يقول قصائدَ تَرْفَعُ من قيمة الأبطال وتُشَجِّعُهُم، كما وضعَ شروطًا للشُّعراء، فلا يجوزُ أن يقولَ الشّعراء قصائدَ تتعارض مع ما هو شرعيٌّ وخيّرٌ، ولا يجوز له أن يُطْلِعَ النَّاسَ على قصائِدِهِ قبْلَ عرضِها على القُضَاة وحُرَّاس القوانين. وإذنْ فـ"أفلاطون" يقولُ بمَقُولة الفنّ الأخلاقيّ، وكان بطبيعةِ الحال ضدَّ مقولةِ الفنِّ للفن. وهو يُفَضِّلُ الملحمة على التّراجِيديا، لأنَّ الملحمةَ تُثِيرُ عاطِفةَ الإعجاب بأبْطَالِها، أمّا التّراجيديا، فإنَّها تُثِيرُ عاطفَتَيْ الشَّفَقَةِ والخوف، وبالتَّالي تجعلُ النَّاسَ أكثرَ ضعفًا، ورأيُه في

3- شكري عزيز الماضي: في نظرية الأدب، ص 27

الشِّعرِ أنَّه يجبُ أن يُقرأَ كشكْلٍ فنّيٍّ وليسَ على أساس أنّه ظاهرةٌ عِلْمِية أوْ لها علاقة بالحَقِيقَةِ. (4)

المحاكاة عند أرسطو 384-322 ق.م

" أرسطو" أوَّلُ من وضعَ كِتابًا نقديًّا هو فنُّ الشِّعر أو الشِّعرية، متأثرًا بأستاذه "أفلاطون" متجاوِزًا إيَّاه، ومعارِضًا له. ولقدْ هيْمَنَ كتابُ فنِّ الشِّعْر على النَّقْدِ الأدبي، ويعدُّه مؤرخُو الأدب والنَّقد أهمَّ مؤَلَّفٍ في نظرية الأدب، كما يعتبر النّقادُ "أرسطو" صاحبَ أولِ جَهْدٍ منْهجيٍّ منظمٍ في تاريخِ نظريةِ الأدب، ولا يزال الكِتَابُ حَامِلًا شذَرَاتٍ نقديةً صالحةً إلى اليوم.

ولقد ارتبطتْ نظريةُ المحاكاة ب"أرسطو" أكثر من "أفلاطون"، ويختلفُ "أرسطو" عن أستاذِه "أفلاطون" في المنهج، فمنهج "أفلاطون" تأمليٌّ، أما "أرسطو" فمنهجُه وصفيٌّ استقرائيٌّ، ولعلَّ التلميذَ قد تفوَّقَ على أستاذِه لأنَّ المنهجَ التأمليَّ قد يُعرِّض صاحبَه إلى مزَالِقَ.

محاكاة أرسطو:

المحاكاةُ عند "أرسطو" تختلفُ عن المحاكاة لدى "أفلاطون"، فقدْ رفضَ"أرسطو"رأيَ أسْتَاذِه القائل بأنَّ المحاكاة نقلٌ حرفيٌّ أو مرآويٌّ، ف"أرسطو" يرى أنّ الشَّاعِر عندما يُحاكي، لا ينقل نقْلًا مِرْآوِيًّا، بلْ يتصرَّف في المنقول، وهو لا يحاكي ما هو كائنٌ فقط بل يحاكي ما ينبغي أن يكون وبذلك يُكْمِلُ الفنُّ النقصَ الموجود في الطبيعة، وعند "أرسطو" فإن الشِّعر يُصبح أكثر جوْدةً إذا حَاكى مَا يُمْكِن أنْ يقع.

وإذا كان "أفلاطون" يرى أن الشِّعْر يَصْدُر عن قِوَى خارجيّةٍ فإنَّ "أرسطو" خَالَفَه في ذلك وقال إنَّ الشِّعْرَ مُرْتَبِطٌ بالطَّبيعة الإنسانية، فما يُوَّلِدُ الشِّعر إنَّما هو غريزةُ المحاكاةِ وغريزةُ حبِّ الوزن والإيقاع، فأصلُ الشِّعر وتعريفُه عنده أنَّه محاكاة، والمحاكاة غريزةٌ إنسانيةٌ، وبها يكتَسِبُ الإنسان المعارف، والمحاكاةُ مُوَلِّدَةٌ للمتعة، فهناك إذن معرفةٌ ومتعةٌ في الوقت نفسِه(5).

وظيفة الشِّعر التَّطْهيرCatharsis

كان "أرسطو" مُعْتَدِلًا في الجمْعِ بين المُتْعَةِ والفائدة في الشّعر، وإذا كان "أفلاطون" قد رأى في التراجِيديا مُنَمِّيَةً لعاطِفَتَيْ الشفقة والخوْف، وتجعلُ النَّاس أكثرَ ضعفًا، وتجعل الإنسان بعيدًا عن العقل، فإنّ "أرسطو" يؤْمِن كما يؤمن "أفلاطون" بأنّ التراجيديا تُنَمِّي عاطفة الشفقة والخوف، لكنَّها تجعل المُشاهدين أكثرَ قُوَّةً من خلال التَّطهير، فالتراجيديا تُتِيحُ لنا تَصْرِيف العواطف المكبوتَة الزائدة، أي تجعلنا أكثرَ تَوَازُنًا، وبالتَّالي نَشْعُرُ بالرَّاحَةِ

4- أحمد صقر: نظرية الدراما الإغريقية بين أفلاطون وأرسطو نظرية المحاكاة عند أفلاطون وعلاقتهما بنظرية المثل

5- أرسطو: فن الشعر، ترجمة وتقديم وتعليق د. إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلو المصرية، ص 79